مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع JALHSS
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences – JALHSS
www.jalhss.com ISSN:2414 – 3383
العدد (12) كانون الثاني- يناير 2017

المقاصد الشرعية للقصص القرآني
من خلال سورة نوح

الدكتور
براهمي عباس
متخرج من قسم القرآن والسنة
كلية الدراسات الإسلامية – الجامعة الوطنية الماليزية UKM
سيدي بلعباس – الجزائر

الخلاصة

يتمحور هذا البحث على بيان معنى المقاصد الشرعية وأهمية بيانها من خلال القصص القرآني، وقد اختار الباحث سورة نوح لاستخراج المقاصد الشرعية منها، وذلك لما لقصة نوح عليه السلام مع قومه من أهمية حيث طالت مدة دعوته لهم وكان فيها من الحكم والعبر ما يبعث الباحث على استكشافها واستخراجها، وذلك من أعظم الأسباب التي تحقق الغرض من إنزال القرآن ألا وهو التدبر والتفكر والاعتبار من قصص الأولين. والمقاصد الشرعية لها أهمية عظيمة في حياة الناس وتقوية عقيدتهم وترسيخها حتى تواجه كل المخاطر والآفات والتحديات التي تحاك بالأمة الإسلامية، والتي تهدد أمنها واسقرارها واجتماعها، فتكون أمة قوية بلا ضعف، ومجتمعة من غير فرقة، وواعية من غير دخن أو شك.

The Legitimate Purposes of Qur'an Stories in Surat Nouh

Dr. Brahmi Abbes
Department of Quran and Sunnah – Facutly of Islamic Studies
UKM University- Malaysia
Sidi bel abbes - Algeria

ABSTRACT

This research revolves on the meanings of the legitimate purposes and the importance of the Quran stories. This research based on Surat Nouh to extract the legitimacy of which purposes, so what of the story of Nouh with his people of the importance of where the longer call them and he was the referee and the lessons that sends a researcher on exploration and extraction, and so one of the greatest reasons that achieve the purpose of landing the Quran, namely contemplation and reflection and consideration of the stories of ancients people. And purposes legitimacy has great importance in people's lives and streng then their faith and deepen even face all risks and pests and the challenges they hatched the Islamic nation, and that threaten its security and stability of the meeting, so the strong nation without weakness, combined non-band, and conscious of is smoked or doubt.

المقدمة

إن من أشرف ما يعنى به الباحثون فيما يخص دراسة كتاب الله تعالى هو التعرف على مقاصده التي لأجلها أنزل، وعلم مقاصد القرآن هو من أجل العلوم التي ينبغي أن تطلب، إذ بها يتحقق مراد الله تعالى من كلامه، وإن القصص التي قصها الله في القرآن والتي تعتبر ثلث القرآن، كان لها حظ وافر من هذه المقاصد، حيث اشتملت على معان جليلة، وحكم عظيمة، من مناهج الأنبياء مع أقوامهم، وأخبار الأمم السابقة وأحوالهم وما آل إليه أمرهم، واستنباط المقاصد منها يحقق الغرض منها كما في قوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[1]، وقد أراد الباحث في هذه الورقة أن يجلي بعض المقاصد الشرعية التي وردت في سورة نوح، والتي تحدثت عن قصة نوح عليه السلام مع قومه. وقد جاء هذا البحث في مباحث:

المبحث الأول: التعريف بعلم المقاصد الشرعية وأهميتها

المبحث الثاني: التعريف بالقصص القرآني وبيان أهميته

المبحث الثالث: قصة نوح عليه السلام مع قومهودعوته لهم

المبحث الرابع: المقاصد الشرعية العامة التي اشتملت عليها سورة نوح عليه السلام

الخاتمة

المبحث الأول

تعتبر المقاصد الشرعية هي محور الفهم والمقصد الأعظم الذي تقوم عليه معاني القرآن الكريم، حيث أن معانيه تدور عليها، وتجتمع في تحقيقها، ولذلك كان هذا القرآن معجزة خالدة، وكلاما إلهيا هاديا، يدعو إلى تكريم الإنسان الذي خلقه الله بعقل وشرفه به، فجاء القرآن ليحرر هذا الإنسان من عبادة العباد أو عباد ما لا يستحق العبادة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وذلك هو شرف الإنسان الذي خلق لأجله في هذه الدنيا ليكون أجدر بخلافة غيره من البشر.

وعلم المقاصد اهتم به العلماء وأبرزوا مكانته خصوصا ما يتعلق منه بالقرآن الكريم، لأن إبراز معاني القرآن الكريم، تجعل المسلم يدرك ما يريده الله منه من تيسير سبل الخير وتسهيل سبل الانتفاع، ودرء طرق الشر عنه، فلا يضر نفسه ولا يضره غيره، وإنه من المناسب أن نتطرق إلى تعريف علم المقاصد حيث يتبين المقصود منه وتبرز أهميته.

تعريف علم المقاصد

تعريف المقاصد: لغة: جمع مقصد. يقال: قَصد يقْصد قَصداً ومقْصداً من باب " ضرب"، والقصد له معان منها: (الاعتماد، والأم، والتوجه، والغرض، والإرادة، وإتيان الشيء، وطلبه بعينه، ويأتي لغير ذلك)[2].

وأما الشرعية: ففي اللغة: و(الشرعية) لغة: مصدر من الشرع. يقال: شرع يشرع شرعا وشرعيا، والشرع: الدين والسنة، والملّة، والسبيل، والظاهر المستقيم من المذاهب، ويأتي لمعان غير ذلك[3].

---

[1] سورة يوسف، الآية 111

[2] ا انظر كتاب الكشاف للزمخشري، ج 2، ص 80، وكتاب الصحاح للجوهري، ج 2، ص 88.

والشرعة بالكسر: الدين، والشرع مثله مأخوذة من الشريعة وهي: مورد الناس للاستقاء سميت بذلك لوضوحها وظهورها، وجمعها شرائع، وشرع الله لنا كذا يشرعه: أظهره وأوضحه.

هذا معنى كلمة مقاصد الشرعية من حيث اللغة، أما من حيث تعريفها الاصطلاحي، فقد عرفها الفاسي بقوله: "هي الغاية منها، والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها"[4]، ويعرفها وهبة الزحيلي بقوله: "هي المعاني والأهداف الملحوظة في جميع أحكامه أو معظمها، أو هي الغاية من الشريعة و الأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامه"[5]

فمدار المقاصد الشرعية على ما أراده الله عز وجل لعباده في دينه من مصالح الدنيا والآخرة بما يحقق لهم خير الدنيا والآخرة.

أهمية المقاصد الشرعية

يعتبر علم المقاصد من العلوم المهمة التي يحتاج إليها المجتهد لتقويم اجتهاداته حتى تتسق مع روح الشريعة السمحة، ولذلك نجد أن العلماء اهتموا بتأصيل هذا العلم وتنظيم أصوله وضوابطه، يقول الشاطبي رحمه الله: "فَإِنْ قِيلَ: قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ" يُبَيِّنُ أَنَّ هَذِهِ الْأَعْمَالَ وَإِنْ خَالَفَتْ قَدْ تُعْتَبَرُ؛ فَإِنَّ الْمَقَاصِدَ أَرْوَاحُ الْأَعْمَالِ؛ فَقَدْ صَارَ الْعَمَلُ ذَا رُوحٍ عَلَى الْجُمْلَةِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ؛ اعْتُبِرَ بِخِلَافِ مَا إِذَا خَالَفَ الْقَصْدُ وَوَافَقَ الْعَمَلُ، أَوْ خَالَفَا مَعًا، فَإِنَّهُ جَسَدٌ بِلَا رُوحٍ، فَلَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ مُقْتَضَى قَوْلِهِ: "الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ" لِعَدَمِ النِّيَّةِ فِي الْعَمَلِ"[6].

وهنا من المناسب إيراد ما ذكره الشيخ الطاهر ابن عاشور حيث بين ما اشتلمت عليه مقاصد الشريعة من مصالح ودرء لمفاسد استوفت كل سبل الخير التي يبتغيها المسلم في حياته الدنيوية والأخروية بطريقة شمولية منضبطة لا تفوت منها أي مصلحة مقصودة. حيث قسمها إلى قسمين:

مقاصد للشرع ومقاصد للناس، ثم قسممقاصد الشرع إلى نوعين: مقاصد عامة، ومقاصد خاصة، وأعطى تعريفا لكل قسم من هذه الأقسام كالتالي:

أ/ **المقاصد العامة**هي : "المعاني والحكمالملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها؛ بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة ، فيدخل في هذا أوصاف الشريعة وغايتُها العامةوالمعاني التي لا يخلو التشريع عن ملاحظتها، ويدخل في هذا أيضا معان من الحكم ليست ملحوظة في سائر أنواعالأحكام، ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها.

ب/ **المقاصد الخاصة** هي الكيفيات المقصودة للشارعلتحقيق مقاصد الناسالنافعة، أو لحفظمصالحهم العامة في تصرفاتهم الخاصة.

ج/ مقاصد الناس هي: "هي المعاني التي لأجلها تعاقدوا أو تعاطوا أو تغارموا أو تقاضوا أو تصالحوا"[7].

---

[3] انظر كتاب الكشاف، للزمخشري، ج 1، ص 503.
[4] انظر كتاب مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها للفاسي، ص 7.
[5] انظر أصول الفقه الإسلام للزحيلي، ج 2، ص 1017.
[6] انظر الموافقات للشاطبي، ج 2، ص 44.
[7] انظر مقاصد الشريعة الإسلامية، لابن عاشور، ص 251

المبحث الثاني: مفهوم القصص القرآني وأهميته

مفهوم القصص القرآني

لغة جاء في الصحاح : " قَص أثره، أي تتبَّعه. قال الله تعالى: (فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا) (الكهف: 64)، وكذلك اقتص أثره وتقصص أثره، والقصة الأمر والحديث، وقد اقتصصت الحديث: رويته على وجهه.[8].

واصطلاحا: فيعرفه مناع القطان بقوله: "أخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة"[9]، فهي كل خبر موجود بين دفتي المصحف، أخبر به الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بحوادث الماضي، بقصد العبرة والهداية، سواء أكان ذلك بين الرسل وأقوامهم، أم بين الأمم السابقة أفردا وجماعات.

أهمية القصص القرآني

تكمن أهمية القصص القرآني في الأمور الآتية:

1-في القصص القرآني بيان لحكمة الله تعالى البالغة التي تتمثل في تذكير من يخالف أوامر الله ويتعدى حدوده، ويعرض عن عبادة ربه، ويتبع هواه والشيطان، وأن عاقبة ذلك خسران ووبال، كما وقع مع الأقوام السابقة من نزول العذاب كقوم نوح وعاد وهود وغيرهم، قال تعالى: (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ)[10].

2-أن الله لا يظلم أحدا من عباده، ولا يعاقب أحدا حتى يقيم عليه الحجة والبرهان، فلما يتبين إعراضه عن الحق وصده عن سبيل الله حينها تحل العقوبة، كما قال تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)[11]، وقال تعالى عن المكذبين: (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ)[12].

3- تضمن القصص القرآني الجزاء والثواب الذي أعده الله تعالى لعباده المؤمنين الذين أطاعوا رسله وآمنوا بهم واتبعوهم. كما قال تعالى: (إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر)[13].

4- اشتملت قصص القرآن على كثير من المواقف التي جاءت حتى تسلي النبي صلى الله عليه وسلم من شدة إعراض قومه وتكذيبهم له، كما قال تعالى: (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ)[14].

5- دعوة المؤمنين للثبات على إيمانهم، وأن ذلك عاقبته هي مثل عاقبة من اتبع الرسل ممن قبلهم، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)[15].

---

[8] انظر كتاب الصحاح للجوهري، ج 3، ص 1051
[9] انظر مباحث في علوم القرآن للقطان، ص 300.
[10] سورة القمر، الآية 5.
[11] سورة التوبة، الآية 115.
[12] سورة هود، الآية 101.
[13] سورة القمر، الآيتين 34 و 35.
[14] سورة فاطر، الآية 25.
[15] سورة الروم، الآية47.

6- تحذير المعرضين عن دين ربهم من التمادي في الإعراض والطغيان كما قال تعالى : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا)[16].

7- دحر شبه المكذبين لرسالةالنبي صلى الله عليه وسلم، وذلك لأن أخبار الأمم السابقة لا يعلمها النبي صلى الله عليه وسلم إلا عن طريق الوحي، كما قال تعالى: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)[17].

المبحث الثالث: قصة نوح عليه السلام مع قومه ودعوته لهم

لقد كان الناس بعد زمن آدم عليه السلام، وقبل بعثة الأنبياء والرسل مجتمعين على دين الله وطاعته، ولما اجتالتهم الشياطين وصرفوهم عن دين الله، فانقسموا إلى طائفتين مؤمنين ومعرضين، بعث الله أنبياءه ورسله ليثبتوا المؤمنين وليردوا المعرضين إلى دين ربهم وملته. يقول الله تعالى: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)[18].

يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين)أخرجه الحاكم وقال: "هذا صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه"[19].

وأرسل الله نوحا عليه السلام في قوم كانوا يعبدون آلهة نصبوها وسموها، يعتقدون فيها أنها ترزقهم وتنفعهم، ورثوها عن آبائهم واتبعوهم على دينهم، وأصل تلك الآلهة يرجع إلى العهد قبل نوح عليه السلام، حيث عاش خمسة رجال صالحين من أجداد قوم نوح، عاشوا زمنا ثم ماتوا، كانت أسماء الرجال الخمسة هي: (ودًّ، سُواع، يغوث، يعوق، نسرا). بعد موتهم صنع الناس لهم تماثيل في مجال الذكرى والتكريم، ومضى الوقت.. ومات الذين نحتوا التماثيل.. وجاء أبنائهم. ومات الأبناء وجاء أبناء الأبناء.. ثم نسجت قصصا وحكايات حول التماثيل تعزو لها قوة خاصة. واستغل إبليس الفرصة، وأوهم الناس أن هذه تماثيل آلهة تملك النفع وتقدر على الضرر.. وبدأ الناس يعبدون هذه التماثيل.

قال محمد بن قيس في قوله تعالى: (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا)[20]: "كَانُوا قَوْمًا صَالِحِينَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ، وَكَانَ لَهُمْ أَتْبَاعٌ يَقْتَدُونَ بِهِمْ، فَلَمَّا مَاتُوا قَالَ أَصْحَابُهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَقْتَدُونَ بِهِمْ: لَوْ صَوَّرْنَاهُمْ كَانَ أَشْوَقَ لَنَا إِلَى الْعِبَادَةِ إِذَا ذَكَرْنَاهُمْ. فَصَوَّرُوهُمْ، فَلَمَّا مَاتُوا وَجَاءَ آخَرُونَ دَبَّ إِلَيْهِمْ إِبْلِيسُ فَقَالَ: إِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَبِهِمْ يُسْقَوْنَ الْمَطَرَ، فَعَبَدُوهُمْ"[21].

وكان نوح عليه السلام رجلا تقيا صادقا أرسله الله ليهدي قومه وينذرهم عذاب الآخرة، ولقي منهم إعراضا شديدا، ومع ذلك استمر عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك، قال تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ

---

[16] سورة محمد، الآية 10.
[17] سورة هود، الآية 49.
[18] سورة البقرة، الآية 213.
[19] أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، ج 2، ص480.
[20] سورة نوح، الآية 23.
[21] انظر جامع البيان في تأوي آي القرآن، للطبري، ج 23، ص 639.

فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)[22]، وقال تعالى: (قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ)[23].

لما دعا نوح عليه السلام قومه لقي إعراضا من قومه إذ دعاهم لأمر لم يتعودوا عليه ولم يجدوا عليه آباءهم، فكذبوه وقال كبراءهم ورؤساهم: إنما أنت بشر، قال تعالى: (فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا)[24]، قال القرطبي: قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ: الْمَلَأُ الرُّؤَسَاءُ، أَيْ هُمْ مَلِينُونَ بِمَا يَقُولُونَ"[25]، وهي نفس التهمة التي جاءت على لسان كفار قريش كما قال تعالى: (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا)[26]، وهم بزعمهم أن الرسالة لا تكون في البشر بل في الملائكة، فرد الله شبهتهم بقوله: (قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا)[27]، ثم لما رأى الرؤساء من قوم نوح أن الذي اتبع نوحا عليه السلام من الضعفاء والفقراء، أمروه أن يطردهم مقابل أن يستجيبوا لدعوته، قال تعالى: (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)[28]. واستمع نوح إلى كفار قومه وأدرك أنهم يعاندون، ورغم ذلك كان طيبا في رده. أفهم قومه أنه لا يستطيع أن يطرد المؤمنين، لأنهم أولا ليسوا ضيوفه، إنما هم ضيوف الله.. وليست الرحمة بيته الذي يدخل فيه من يشاء أو يطرد منه من يشاء، إنما الرحمة بيت الله الذي يستقبل فيه من يشاء. فقابل نوح عليه السلام طلبهم بالرفض، كما قال تعالى: (وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)[29].

واستمر نوح في دعوة قومه إلى عبادة الله وحده، ليلا ونهارا، وسرا وجهرا، يضرب لهم الأمثال،يعظكم ويذكرهم، يبشرهم وينذرهم، وكان جوابهم الإعراض والفرار، بل كانوا يجعلون أصابعهم في آذانهم واستكبروا عن سماع الحق. واستمر نوح يدعو قومه إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)[30]، وظلت دعوته عليه السلام طوال 950 سنة، ثم جاء وحي الله إليه أنه لن يؤمن أحد عدا الذين آمنوا معه، وأمره الله سبحانه وتعالى أن يبني سفينة ليحمل فيها من آمن معه لينجيهم الله من الطوفان.

بدأ نوح يبني السفينة، ويمر عليه الكفار فيسخرون منه، إذ كيف يصنع سفينة في صحراء مترامية الأطراف، وكان ذلك بلاءا شديدا على نوح عليه السلام، ولما انتهى من صنع السفينة، أوحى الله إلى نوح أنه إذا فار التنور فإنه علامة على بدء الطوفان. كما قال تعالى: (فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)[31]،قال ابن كثير رحمه الله: "عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: التَّنُّورُ: وَجْهُ الْأَرْضِ، أَيْ: صَارَتِ الْأَرْضُ عُيُونًا تَفُورُ، حَتَّى فَارَ الْمَاءُ مِنَ التَّنَانِيرِ الَّتِي هِيَ مَكَانُ النَّارِ، صَارَتْ تَفُورُ مَاءً، وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ السَّلَفِ وَعُلَمَاءِ الْخَلَفِ.وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: التَّنُّورُ: فَلَقُ الصُّبْحِ، وَتَنْوِيرُ الْفَجْرِ، وَهُوَ ضِيَاؤُه وإشراقه. وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ"[32]، وعندها حمل نوح إلى السفينة من كل حيوان وطير ووحش زوجين اثنين، ولم تصعد مع نوح عليه السلام زوجته وابنه لأنهما لم يكونا مؤمنين، وعندما بدأ الماء يملأ كل مكان، واستمر طوفان نوح عليه السلام حتى أغرق كل

---

[22] سورة الأعراف، الآية 59.
[23] سورة نوح، الآتيتين 2 ، 3 .
[24] سورة هود، الآية 27.
[25]انظر الجامع في أحكام القرآن للقرطبي، ج 11، ص98.
[26] سورة الإسراء، الآية 94.
[27]سورة الإسراء، الآية 95.
[28]سورة هود، الآية 27.
[29]سورة هود، الآية 29.
[30]سورة العنكبوت، الآية 14.
[31]سورة المؤمنون، الآية 27.
[32]انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج 7، ص436.

شي، ثم جاء الأمر الإلهي للماء أن يتوقف، كما قال تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[33]، وهكذا أنجى الله نوحا عليها السلام ومن آمن معه.

المبحث الرابع: المقاصد الشرعية العامة التي اشتملت عليها سورة نوح

قد اشتملت سورة نوح عليه السلام على جملة من المقاصد العظيمة التي ذكرها الله تعالى تعليما لنبيه صلى الله عليه وسلم حتى يستنير بها في حياته ويقوي بها عزيمته في التصدي لأذى قومه، وأن غيره من الأنبياء قد لاقوا أكثر مما لاقى هو صلى الله عليه وسلم، وهي أيضا تعليما للأمة ليستمروا على طاعة ربهم ويثبتوا على طريق المستقيم، وأن العاقبة تكون دائما لمن لازم طاعة ربه وتوكل عليه.

وقد جاءت إجمالتلك المقاصد في هذه السورة في ثلاث مقاصد عامة

المقصد الأول: ترسيخ عبادة الله وحده في نفوس المدعوين وأن ذلك هو الغاية من خلقهم.

والمقصد الثاني: تذكير المدعوين بآلاء الله وآياته في الأنفس وفي خلق السموات والأرض وأن ذلك يدعوهم إلى الرجوع إلى ربهم.

المقصد الثالث: تذكيرهم بالمعاد وأن مردهم سيكون إلى ربهم الذي أمرهم بطاعته حيث الجزاء والثواب.

المقصد الأول: ترسيخ عبادة الله وحده في نفوس المدعوين وأن ذلك هو الغاية من خلقهم

لقد ورد في السورة ما يوضح طريقة نوح عليه السلام في دعوته لقومه لعبادة الله وحده، وقد استعمل كل السبل التي علمها إياه ربه، حتى يصرف قومه عن عبادة تلك الأوثان التي صنعها أجدادهم ويوجههم إلى التوجه لله وحده سبحانه في عباداتهم، وقد كانت دعوته منصبة أساسا إلى ترسيخ عبادة الله تعالى ونبذ الشرك من خلال الدعوة إلى عبادة الله وحده:

والمقصود بذلك دعوتهم إلى عبادة الله وحده وامتثال أمره واجتناب نواهيه وذلك بالخضوع والاستسلام والتطبيق الكامل لما يأمرهم به من تقوى الله، ومراقبته وخشيته في السر والعلن، فهو الرقيب الحسيب الذي أحاط بكل شيء علماًولا يتم ذلك إلا بطاعة الرسول الأمين الذي بعث فيهم، المبلغ عن الله سبحانه، وهذا واضح في قوله تعالى: (قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ)[34]، وهذه الآية تلخص لنا موضوع دعوة نوح عليه السلام، وأن عبادة الله وحده هي المنجي الوحيد من عذاب الله، وهذا قد أشير إليه في أول السورة بقوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[35]، وكان نوح عليه السلام يدعو قومهم وهو مشفق عليهم من أن يصيبهم عذاب الله، فجعل يعدهم بالثواب الجزيل على طاعته، وهو على قسمين:

الثواب الأخروي والمقصود غفران جميع الذنوب وأن ينالوا الثواب على طاعة الله وحده، وهذا أشار إليه بقوله تعالى:(يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ) والغفران هنا لكل الذنوب وليس لبعضها وهو شامل لسترها والتجاوز عنها، قال الطبري رحمه الله: "والموضع الآخر: هو الذي يصلح فيه مكانها عن فإذا، صلحت مكانها "عن" دلت على الجميع، وذلك كقولك: وجع بطني من طعام طعمته، فإن معنى ذلك: أوجع بطني طعام طعمته، وتصلح مكان

[33] سورة هود، الآية 44.
[34] سورة نوح، الآيتين 2 ، 3.
[35] سورة نوح، الآية 1.

"من" عن، وذلك أنك تضع موضعها "عن"، فيصلح الكلام فتقول: وجع بطني عن طعام طعمته، ومن طعام طعمته، فكذلك قوله: (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) إنما هو: ويصفح لكم، ويعفو لكم عنها"[36].

الثواب الدنيوي والمقصود به أن يزاد في أعمارهم فينعموا بخيرات مزارعهم وبما يمنحون من بنين وحفدة، ولا شك أن تأخير الأعمار من الأمور التي ينبغي أن يتقصدها المسلم في حياته، لما فيها من تدارك ما فات بالتوبة والإنابة، والعمل لما يستقبل ببذل الخير وعمل المعروف، وهذا أشير إليه بقوله تعالى: (وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)[37]، ولا شك أن الأعمار قد قدرت وسطرت في اللوح المحفوظ، لكن من حكمة الله أن جعل طاعة الله سببا في إطالة الأعمار وبسط الأرزاق، وذلك ما تضمنهقوله تعالى: (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)[38]، ويؤيد ذلك ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "من سَرّه أن يبسط له في رزقه ويُنْسأ له في أثره فليصل رحمه"[39]، وبما أن الأمر يرجع إلى الخالق فهو القادر على أن يفعل ما يشاء.

وبعد أن لقي نوح عليه السلام عنادا من قومه وإعراضا كما أشار القرآن إلى ذلك في قوله تعالى: (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا)[40]، وذلك دأب الأنبياء والمصلحين بأن يكونوا مستعدين للشدة التي يلقونها في سبيل دعوة الناس إلى الخير والفلاح، وقد جاء الأمر به للنبي صلى الله عليه وسلم في القرآن في قوله تعالى: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ)[41].

وربط الناس بالثواب الأخروي والثواب الدنيوي جرى عليه الأنبياء والمرسلون، وذلك أن العبد إذا تعلق بثواب ربه الأخروي يبقى ملازما للعبادة والطاعة حتى مماته، ويصبح الثواب الأخروي هو هدفه الذي يقصده ويريده، وذلك يجلعه عبدا متبصرا ببصيرته كأنها بصره، ثم إذا انضاف إلى ذلك حصوله على ثواب دنيوي فلا ريب أن ذلك يزيده تمسكا بدينه ومحبته لما يفعله ويقوم به من عبادات وواجبات، ويرسخ في قلبه أن وظيفته في هذه الدينا إنما هي العبادة كما قال تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[42]، وهذا الأسلوب هو الذي درج عليه نوح عليه السلام في دعوته قومه إلى عبادة الله وحده، ثم ذكرهم نوح عليه السلام بأن الإنابة إلى رب العباد هو المخرج لهم مما هم فيه من العقاب، وموضوع التوبة وأنها تجب ما قبلها أصل قررته شريعتنا وتظافرت النصوص على أهميته، وأن وقتها لا يفوت صاحبها إذا جاء بها قبل غروب الشمس من مغربها أو عند حلول العذاب، كما قال تعالى: (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)[43]، وبين ذلك نبينا صلى الله عليه وسلم وأن التوبة إنما تقبل إذا كانت قبل طلوع الشمس من مغربها أو قبل حضور الأجل، فعن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللهُ عَلَيْهِ"[44]، وعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرِ"[45].

---

[36] انظر جامع البيان في تأويل آي القرآن، للطبري، ج 23، ص627.
[37] سورة نوح، الآية 4.
[38] سورة الرعد، الآية 39.
[39] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب من أحب أن يبسط له في رزقه ، ج 3، 56، رقم 2067، ومسلم، ج 4، برقم 2557.
[40] سورة نوح، الآيتين 5 ، 6.
[41] سورة الأحقاف، الآية 35.
[42] سورة الذاريات، الآية 56.
[43] سورة الأنعام، الآية 158.
[44] أخرجه مُسلم في صحيحه،ج 4، برقم 2703.
[45] أخرجه أحمد في المسند،ج 10، ص 300، والتِّرْمِذِيُّ في جامع، ج 5، 438.

والتوبة لا يبقى معها ذنب سالف إذا أخلص صاحبها فيها، لذلك قال نوح عليه السلام لقومه: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا)[46]، وترسيخ العبادة في قلب العاصي والمذنب يحتاج إلى أن تتخلص النفس من اليأس الذي يلم بها عندما تذنب وتقع في العصيان، فكان لزاما على الداعية أن يذكر من يدعوه إلى سعة رحمة الله وأنه تواب رحيم غفار للذنوب عفو غفور، يغفر الذنوب جميعا، كما قال تعالى: (قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[47]، ثم وعدهم نوح عليه السلام بثواب التوبة والاستغفار في دنياهم فقال لهم: (يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا)[48]، قال ابن كثير رحمه الله: "أيْ: إذَا تُبْتُمْ إلى اللَّهِ وَاسْتَغْفَرْتُمُوهُ وَأَطَعْتُمُوهُ، كَثَّرَ الرِّزْقَ عَلَيْكُمْ، وَأَسْقَاكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ، وَأَنْبَتَ لَكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ، وَأَنْبَتَ لَكُمُ الزَّرْعَ، وَأَدَرَّ لَكُمُ الضَّرْعَ، وَأَمَدَّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ، أيْ: أَعْطَاكُمُ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ، وَجَعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ فِيهَا أَنْوَاعَ الثِّمَار، وَخَلَّلَهَا بِالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ بَيْنَهَا"[49].

وقد شرع في ديننا صلاة الاستسقاء عندما تجدب الأرض ويحبس المطر، لأن الطاعة سبب الخيرات والأمطار، والعصيان سبب الجدب والقحط، عن عبد الله بن زيد بن عاصم المازني قال: "خرج النبيصلى الله عليه وسلم يستسقي، فتوجه إلى القبلة يدعو، وحول رداءه ثم صلى ركعتين جهر فيهما بالقراءة"[50]، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ إِذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَقَالَ: "اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا"، قَالَ: فَيُسْقَوْنَ"[51]، قال الحافظ ابن حجر: " ويستفاد من قصة العباس استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصلاح وأهل بيت النبوة وفيه فضل العباس وفضل عمر لتواضعه للعباس ومعرفته بحقه وعن الشعبي قال خرج عمر رضي الله عنه يستسقي فلم يزد على الاستغفار فقالوا ما رأيناك استسقيت فقال لقد طلبت الغيث بمجاريح السماء الذي يستنزل به المطر ثم قرأ: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا)[52]،(اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)[53] رواه سعيد بن منصور، وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استسقى، قال: "اللهم اسق عبادك، وبهائمك، وانشر رحمتك، وأحي بلدك الميت " رواه أبو داود، وعن عائشة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى المطر قال: "اللهم صيبا نافعا" رواه أحمد والبخاري والنسائي"[54].

المقصد الثاني: ترسيخ الدعوة إلى الله من خلال التذكير بآيات الله في الأنفس وفي الكون

أولا: التذكير بآيات الله الكونية

المقصود بالآيات الكونيةتلك التي تنسب إلى الكون الذي هو خلق الله كونه سبحانه فكان، وذلك السموات والأرض وما فيهما وما بينهما من سائر المخلوقات"[55].

وقد جاء ذلك واضحا عندما خاطب نوح عليه السلام قومه فقال تعالى: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)[56]، وهذه الآيات العظيمة التي لا ينكرها أحد من أقوى ما يلزم به المخالفون لأنبيائهم، لأنهم يوقنون أن من خلق مثل هذه المخلوقات العظيمة لابد أن يكون هو الذي

---

[46] سورة نوح، الآية 10.
[47] سورة الزمر، الآية 53.
[48] سورة نوح، الآيتين 11، 12.
[49] انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير،ج 8، ص 232.
[50] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب الاستسقاء، باب الجهر بالقراءة في الاستسقاء، ج 2، ص 31، برقم 1024.
[51] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، ج 2، ص 27، برقم 1010.
[52] سورة نوح، الآيتين 10، 11.
[53] سورة هود، الآية 3.
[54] انظر فتح الباري لابن حجر، ج 2، ص 497.
[55] انظر أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري، ج 1، ص 141.
[56] سورة نوح، الآيتين 15، 16

خلقهم من عدم والقادر على إفنائهم، فلزم من ذلك أن يعبد وحده كما أمر. يقول ابن كثير رحمه الله: "أَيْ: وَاحِدَةً فَوْقَ وَاحِدَةٍ، وَهَلْ هَذَا يُتَلَقَّى مِنْ جِهَةِ السَّمْعِ فَقَطْ؟ أَوْ هِيَ مِنَ الْأُمُورِ الْمُدْرَكَةِ بِالْحِسِّ، مِمَّا عُلِمَ مِنَ التَّسْيِيرِ وَالْكُسُوفَاتِ، فَإِنَّ الْكَوَاكِبَ السَّبْعَةَ السَّيَّارَةَ يَكْسِفُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَأَدْنَاهَا الْقَمَرُ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَهُوَ يَكْسِفُ مَا فَوْقَهُ، وَعُطَارِدُ فِي الثَّانِيَةِ، وَالزُّهَرَةُ فِي الثَّالِثَةِ، وَالشَّمْسُ فِي الرَّابِعَةِ، وَالْمَرِّيخُ فِي الْخَامِسَةِ، وَالْمُشْتَرِي فِي السَّادِسَةِ، وَزُحَلُ فِي السَّابِعَةِ. وَأَمَّا بَقِيَّةُ الْكَوَاكِبِ -وَهِيَ الثَّوَابِتُ-فَفِي فَلَكِ ثَامِنٍ يُسَمُّونَهُ فَلَكَ الثَّوَابِتِ. وَالْمُتَشَرِّعُونَ مِنْهُمْ يَقُولُونَ: هُوَ الْكُرْسِيُّ، وَالْفَلَكُ التَّاسِعُ، وَهُوَ الْأَطْلَسُ. وَالْأَثِيرُ عِنْدَهُمُ الَّذِي حَرَكَتُهُ عَلَى خِلَافِ حَرَكَةِ سَائِرِ الْأَفْلَاكِ، وَذَلِكَ أَنَّ حَرَكَتَهُ مَبْدَأُ الْحَرَكَاتِ، وَهِيَ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ؛ وَسَائِرُ الْأَفْلَاكِ عَكْسُهُ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَمَعَهَا يَدُورُ سَائِرُ الْكَوَاكِبِ تَبَعًا، وَلَكِنْ لِلسَّيَّارَةِ حَرَكَةٌ مُعَاكِسَةٌ لِحَرَكَةِ أَفْلَاكِهَا، فَإِنَّهَا تَسِيرُ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ. وَكُلٌّ بِقَطْعُ فَلَكَهُ بِحَسْبِهِ، فَالْقَمَرُ يَقْطَعُ فَلَكَهُ فِي كُلِّ شَهْرٍ مَرَّةً، وَالشَّمْسُ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَزُحَلُ فِي كُلِّ ثَلَاثِينَ سَنَةً مَرَّةً، وَذَلِكَ بِحَسْبِ اتِّسَاعِ أَفْلَاكِهَا وَإِنْ كَانَتْ حَرَكَةُ الْجَمْعِ فِي السُّرْعَةِ مُتَنَاسِبَةً. هَذَا مُلَخَّصُ مَا يَقُولُونَهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ، عَلَى اخْتِلَافٍ بَيْنَهُمْ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، لَسْنَا بِصَدَدِ بَيَانِهَا، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ: (خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا) أَيْ: فَاوَتَ بَيْنَهُمَا فِي الِاسْتِنَارَةِ فَجَعَلَ كُلًّا مِنْهُمَا أُنْمُوذَجًا عَلَى حِدَةٍ، لِيُعْرَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ بِمَطْلَعِ الشَّمْسِ وَمَغِيبِهَا، وَقَدَّرَ الْقَمَرَ مَنَازِلَ وَبُرُوجًا، وَفَاوَتَ نُورَهُ، فَتَارَةً يَزْدَادُ حَتَّى يَتَنَاهَى ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النَّقْصِ حَتَّى يَسْتَسِرَّ، لِيَدُلَّ عَلَى مُضِيِّ الشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ، كَمَا قَالَ: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)[57]"[58].

وقد ورد في هذه السورة أنواع من الآيات الكونية:

الأول: آيات علوية: مثل السموات والشمس والقمر، وهذه جاءت الإشارة إليها في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)[59].

الثاني: آيات سفلية: وهي الأرض وما يتعلق بها من تراب وماء وما يعيش عليها من حيوان ونبات. وقد جاءت الإشارة إليها في قوله تعالى: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا)[60]، قال ابن كثير رحمه الله: "أَيْ: بَسَطَهَا وَمَهَّدَهَا وَقَرَّرَهَا وَثَبَّتَهَا بِالْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ الشُّمِّ الشَّامِخَاتِ (لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلا فِجَاجًا) أَيْ: خَلَقَهَا لَكُمْ لِتَسْتَقِرُّوا عَلَيْهَا وَتَسْلُكُوا فِيهَا، أَيْنَ شِئْتُمْ، مِنْ نَوَاحِيهَا وَأَرْجَائِهَا وَأَقْطَارِهَا، وَكُلُّ هَذَا مِمَّا يُنَبِّهُهُمْ بِهِ نُوحٌ، عَلَيْهِ السَّلَامُ على قدرة الله وعظمته في خلق السموات وَالْأَرْضِ، وَنِعَمِهِ عَلَيْهِمْ فِيمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الْمَنَافِعِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ، فَهُوَ الْخَالِقُ الرَّزَّاقُ، جَعَلَ السَّمَاءَ بِنَاءً، وَالْأَرْضَ مِهَادًا، وَأَوْسَعَ عَلَى خَلْقِهِ مِنْ رِزْقِهِ، فَهُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعْبَدَ وَيُوَحَّدَ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ أَحَدٌ؛ لِأَنَّهُ لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ لَهُ، وَلَا نِدَّ وَلَا كُفْءَ، وَلَا صَاحِبَةَ وَلَا وَلَدَ، وَلَا وَزِيرَ وَلَا مُشِيرَ، بَلْ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ"[61].

والآيات من حيث دلالتها على وجود الخالق ولزوم عبادته وحده لا شريك على قسمين:

الأول: يوضح الحكمة الإلهية من إيجاد الخلق وإنشاء الحوادث، وأنها تضمنت دلالات قوية على وجود خالق لها، وأنه صورها وكونها ودبر أمورها، وذلك يدعو العبد لأن يستعظم قدرة ربه وأنه قدرة لاحدود لها. كما في قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)[62]، وقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا

[57] سورة يونس، الآية 5.
[58] انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج 14، ص 141.
[59] سورة نوح، الآيتين: 15،16.
[60] سورة نوح، الآيتين: 19، 20.
[61] انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج 14، ص 141.
[62] سورة الحجر، الآية 85.

بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)[63]. وفي سورة نوح جاءت الإشارة إلى هذا النوع في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)[64].

الثاني: يتحدث عن المخلوقات ويصف نظام إيجاده الحكيم وأحوالهم وفقا لأحكم سنته، وتنفيذا لإرادته ومشيئته ويصف ما فيها من رحمات ونعيم للعباد، مثل قوله تعالى: (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ)[65]"[66].

والتذكير بالآيات الكونية من أقوى ما يرسخ العقيدة ويدعو إلى عبادة الله وحده وترك ما ورث عن الآباء من عبادة الأوثان والأصنام.

وقد تنوع أسلوب القرآن في إيراد الآيات الكونية على طرق متعددة كلها ترسخ العقيدة في قلوب العباد:

الأول: استخدام السؤال طريقة للإقناع والوصول إلى الحق الذي هو التوحيد ونبذ ما يخالفه، كما جاء واضحا في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا)[67]. وهذا مثل قوله تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)[68]، وقوله تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)[69]. يقول ابن كثير رحمه الله:"أَيْ: وَلَئِنْ سَأَلْتَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرَهُ(مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) أَيْ: هُمْ يَعْتَرِفُونَ أَنَّهُ الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ جَمِيعِهَا، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ، مِمَّنْ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُ على شيء، فهم في ذَلِكَ فِي غَايَةِ الْجَهْلِ وَالسَّفَاهَةِ وَسَخَافَةِ الْعَقْلِ؛ ولهذا قال: "فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ"[70].

الثاني: تصديق خبر الأنبياء بحصول بعد الآيات الكونية، كانشقاق القمر في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث أَنَسٍ، أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً "فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ مَرَّتَيْنِ"[71].

الثالث: بيان عبودية جميع الكائنات لله رب العالمين، فما بال هذا الإنسان معرض عن عبادته وهو معظم لهذه الآيات، كما أشار الله تعالى إلى هذا المعنى في قوله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)[72].

الرابع: بيان تفرد الله بخلقها والتصرف فيها، فله وحده ملك السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، يتصرف فيها بحكمته وقدرته.

الخامس: إجابة الله عز وجل سؤال أولياءه طلب بعض الآيات الكونية، كما سأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يريه كيف يحي الموتى. كما قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[73]. وهذا السؤال من إبراهيم عليه السلام لم يكن شكا بل كان تقوية للإيمان وزيادة في

---

[63] سورة يونس، الآية 5.
[64] سور نوح، الآيتين 15، 16.
[65] سورة عبس، الآيتين: 17، 22.
[66] انظر الآيات الكونية دراسة عقدية للوعلان، ص 29.
[67] سورة نوح، الآية 5.
[68] سورة العنكبوت، الآية 61.
[69] سورة الزخرف،87.
[70] انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج 12، ص 331.
[71] أخرجه مسلم في صحيحه، ج 4، برقم 2802.
[72] سورة الحج، الآية 18.
[73] سورة البقرة، الآية 260.

الرسوخ، وقد بين ذلك نبينا صلى الله عليه وسلم، فعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)[74] وَيَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ، لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ"[75].

الثاني: التذكير بالآيات في الأنفس:

اشتملت سورة نوح عليه السلام على هذا النوع من الآيات، فقد ذكر بها نوح عليه السلام قومه، لما في ذلك من أبلغ العظة والذكرى لعقل العبد وقلبه، فإنه إذا تفكر في خلقته وأصل وجوده، وأدرك أن الآلهة التي يعبدها لا تقدر على أن تخلق بعوضة، فكيف أن تخلق هذا الإنسان الذي يتكون من روح وجسد، ويتخلله نظام داخل جسمه بالغ التعقيد، علم حينها أن الخالق الذي خلقه وقدره وصوره في أحسن تقويم هو الإله الحق الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك، وهو الإله الذي بعث إليه رسوله حتى يتبعه ويقتدي به، وهذه الإشارة وردت في قوله تعالى: (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) والمقصود بذلك أطوار خلق الإنسان، قال ابن كثير: "قِيلَ: مَعْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعِكْرِمَةُ، وَقَتَادَةُ، وَيَحْيَى بْنُ رَافِعٍ، وَالسُّدِّيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ"[76].

والتذكير بخلقة الإنسان من أعظم ما يذكر به المعاند، لأن ذلك شيء لا ينكره أحد، سواء تعلق ذلك بأصل الخلقة أو بالتوالد ومراحل تطورها من نطفة إلى أن تصل إلى جنين يستهل صارخا من بطن أمه، وقد جاء بيان مراحل تخلق الجنين في بطن أمه في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)[77]، وقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)[78].

والنظر في أطوار خلق الإنسان والتمعن فيها، أمر به كل مكلّف أن ينظر فيه كما في قوله تعالى: (فَلْيَنْظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ)[79]، وخلق الإنسان من الآيات العظيمة التي تبهر العقول، فكل طور من تلك الخلقة هو في نفسه آية وهو من الإعجاز العلمي، وقد جاء ذكر تلك الأطوار في القرآن الكريم، وفي ذلك أبلغ الاعتبار والذكرى، (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)[80].

ومن الواضح أنه قبل عملية خلق الإنسان قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن فيه الإنسان مذكورًا كما في قوله تعالى: (هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)[81]. ثم توالد وتكاثر وصار أمره إلى التوالد والتناسل على ما تعارف عليه الناس.

ويمكن تقسيم النظر في آية خلقة الإنسان إلى قسمين:

القسم الأول: أطوار خلقة الإنسان الأول.

القسم الثاني: مراحل خلقة باقي البشر.

---

[74] سورة البقرة، الآية 260.
[75] أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ونبئهم عن ضيف إبراهيم ، ج 4، ص 147، برقم 3372، ومسلم، ج 1، ص 133، برقم 238.
[76] انظر تفسير ابن كثير، ج 14، ص 140.
[77] سورة فاطر، الآية 11.
[78] سورة غافر، الآية 67.
[79] سورة الطارق، الآيتين 5، 6.
[80] سورة الحشر، الآية 2.
[81] سورة الإنسان، الآية 1.

القسم الأول: أطوار خلقة الإنسان الأول:

وهذه القسم مبني بدوره على أمرين: أولا: عناصر تكوينه، ثانيا: مراحل خلقه وتكوينه.

أولا: عناصر تكوينه:

1- الماء:

وهو أول عنصر من عناصر تركيب خلقة الإنسان، ومنه خلق الله كل شيء حي، قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)[82]. ويستثنى من ذلك الملائكة فقد خلقوا من النور، والجان من النار. ودليل من القرآن كثير، منه قوله تعالى: "(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا)[83].

2- التراب:

التراب هو العنصر الثاني من عناصر خلق أبي البشر آدم عليه السلام قال تعالى في ذلك الشأن: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)[84]، والتراب عنصر أساسي في تكوين كل إنسان بعد آدم عليه السلامإذ لا يستغنى عنه في استمرار الحياة، فمنه النبات والغذاء، قال تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)[85].وقال تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)[86].وقال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)[87]. وإنما نسب خلق البشر إلى التراب مع أن خلقهم عن طريق التناسل، وذلك باعتبار أصل خلقة أبيهم آدم التي كانت من تراب، فأطلق على البشر جميعهم لأن الفروع تبع للأصل.

ثانيا: مراحل خلق الإنسان الأول:

1- الطين:

وهو الذي ينتج عند امتزاج عنصرَي الماء والتراب اللذان هما عنصرا تركيب خلقة آدم عليه السلام، قال تعالى: (ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)[88].

وورد في القرآن وصف هذا الطين بأنه لازب، وهو اللزج المتلاصق المتماسك يشد بعضها بعضا، قال تعالى: (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ)[89].

ومما هو معلوم أن الأرض تختلف تربتها وطبقاتها، ولها أنواع كثيرة، ولما كان أصل خلق البشر منها اختلفت أشكالهم وألوانهم وطبائعهم بحسب اختلاف أصل خلقتهم،يوضح ذلك ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم في

[82]سورة الأنبياء، الآية 30.
[83]سورة الفرقان، الآية 54.
[84]سورة آل عمران، الآية 59.
[85]سورة فاطر، الآية 11.
[86]سورة غافر، الآية 67.
[87]سورة الروم، الآية 20.
[88]سورة السجدة، الآيتين 6، 9.
[89]سورة الصافات، الآية 11.

الحديث التالي ، عَنْ أَبِي مُوسَى الأشعري رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله خلق آدم من قبضة قبضَها من جميع الأرض، فجاء بنو آدمَ على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود، وبين ذلك والسهل والحزن، وبين ذلك والخبيث والطيِّب، وبين ذلك"[90].

2- الحمأ المسنون:

والحمأ هو الطين الأسود المتغير بعد أن مزج الماء مع التراب وترك، قال تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)[91]، وأما المسنون ففيه اختلف فيه المفسرون في معناه، على أقوال كثيرة،قيل: المصوَّر من سُنَّة الوجه وهى صورته، وهو مروي عن ابن عباس[92]، وقيل المصبوب المفرغ، أي: أفرغ صورة الإنسان كما تفرغ الصور من الجوهر في أمثلتها، وقيل إنه المنتن، وقال ابن كثير: المسنون الأملس[93]، ورجِّح الشنقيطي الرأي الأول واستدل بقوله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)[94]، أي بعد أن مزَج الخالق تبارك وتعالى عنصرَي التراب والماء صار المزيج طينًا لازبًا لاصقًا، ثم بعد ذلك صار هذا الطين حمأ أسودًا مسنونًا مصورًا"[95].

3- الصلصال:

والصلصال هو الطين اليابس الذي له صلصلة أي صوت من يبسه إذا ضرب بشيء، ما لم تسمه النار، فإذا مسته النار صار فخارا، وهذا قول أكثر المفسرين، وهذا الطور من الخلقة وردت الإشارة إليه في القرآن، قال تعالى: (خَلَقَ الإنسان مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ)[96]. والتشبيه في الآية بالفخار لأن خلقة آدم لم تمسها النار، بل بقيت أصل مادة خلقته صلصالا[97].

4- نفخ الروح:

وهذه المرحلة تأتي آخرها، فبعد أن سوَّى الله تعالى الإنسان الأول وصوَّره، من طين ثم حمأ ثم صلصال، نفخ الله فيه الروح فكان بشرا سويا، قال تعالى: (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)[98]. وإضافة الروح إليه سبحانه إضافة تشريف، ولأنه يملكها سبحانه دون ما سواه، والروح من عجائب خلق الله تعالى، ولهذا قال فيها تعالى: "(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)[99].

القسم الثاني: مراحل خلقة بني البشر، وهذا نوضحه من وجهين:

الأول: مراحل خلق الإنسان في بطن أمِّه

تحدَّث القرآن الكريم عن خلق سلالة هذا الإنسان، ومراحل تطورها في بطن أمه، وقد جاء ذلك في آيات كثيرة، ليشير إلى أهمية معرفة الإنسان وتدبره لمراحل تطوره وخلقته، من ذلك قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي

---

[90]أخرجه أحمد في مسنده، ج 32، ص 353، برقم 19582، وأبو داود، ج 7، ص 78 برقم 4693، في كتاب السنة، باب في القدر.
[91]سورة الحجر، الآية 26.
[92]انظر تفسير الطبري، ج 14، ص 65.
[93] انظر تفسير ابن كثير، ج 8، ص 255.
[94]سورة الحجر، الآية 26.
[95]انظر أضواء البيان للشنقيطي، ج 3، ص 173.
[96]سورة الرحمن، الآيتين 14، 15 .
[97]انظر أضواء البيان للشنقيطي، ج 3، ص 173.
[98]سورة ص، الآيتين 71، 72.
[99]سورة الإسراء، الآية 85.

رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (الحج: 5)، وقوله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)[100].

1- النطفة:

وهذه أول مراحل التخلق في بطن الأم، والنطفة هي ذلك الشيء المختلط من من ماء الرجل وماء المرأة؛ حيث يختلطان بعد عملية الجماع فيصير الماءان نطفة. وقد جاءت الإشارة إلى هذه المرحلة في اثني عشر موضعا من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: (خَلَقَ الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)[101]، وقوله تعالى: (وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا)[102]. وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)[103]، وورد في سورة المؤمنون الآية 13، 14، وفي سورة فاطر الآية 11، وفي يس، الآية 77، وفي سورة غافر، الآية 67، وفي سورة النجم، الآية 46، وفي سورة القيامة، الآية 37، وفي سورة الإنسان، الآية 2، وفي سورة عبس، 19.

ويصلَ تَعدادُ الحيوانات المنوية التي تُفرزُها الخصيتين إلى ما بين مائتين إلى ثلاثمائة حيوان منوي في الدفعة الواحدة، بينما الأنثى تدفع بُوَيْضة واحدة عليها تاج مشع، ولا يصل من الكميات الهائلة من الحيوانات المَنَوية إلى البويضة إلا حيوان منوي واحد. وبعد أن يتم التلقيح بين الحيوان المنوي والبويضة، تبدأ البويضة الملقحة بالانقسام.

2- العَلقة:

والعلقة هي ذلك الدم الجامد، وهي المرحلة الثانية من التخلق، حيث تتحول البويضة الملقحة إلى دم جامد، وقد ورد ذكر لفظ العلقة في القرآن الكريم في خمس آيات، منها قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)[104]، وقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)[105]، وقد ورد في سورة المؤمنون، الآية14، وفي سورة القيامة، الآية 38.

[100] سورة المؤمنون، الآيتين 12، 14.
[101] سورة النحل، الآية 4.
[102] سورة الكهف، الآية 37.
[103] سورة الحج، الآية 5.
[104] سورة الحج، الآية 5.
[105] سورة غافر، الآية 67.

3- المضغة:

وهذا المرحلة تبدأ في الأسبوع الثالث منذ تلقيح البويضة، وقد ذُكر لفظ المضغة في القرآن الكريم ثلاث مرَّات مرتين في سورة المؤمنون: 14، ومرة واحدة في سورة الحج: 5، والمضغة هي القطعة الصغيرة من اللَّحم بقدر ما يُمضَغ، وهذه المرحلة على مرحلتين:

أ- غير المُخلَّقة:

وهذه المرحلة تمتد من الأسبوع الثالث حتى الأسبوع الرابع، وتتميز هذه المرحلة بأن تلك المضغة لا يكون لها أي شكل سوى أنها مضغة.

ب- المضغة المُخلَّقة:

وهذه المرحلة تبدأ بعد نهاية الأسبوع الرابع، حيث تطرأ بعض التغيرات على تلك المضغة، فتنمو الخلايا وتتطوَّر ويكون لها شكل معين، وتنتهي هذه المرحلة في نهاية الشهر الثالث تقريبًا.

وقد جاء ذكر هذه المرحلتين في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)[106].

والمسافة بين النطفة والعلقة مسافة معتبرة في ميزان الخلقة، ولذلك جاء التعبير في النقلة بين النطفة والعَلقة بحرف العطف (ثُمَّ) الذي يدل على العطف والتراخي. أما التحول بين العَلقة والمُضغة فأسرعلذلك جاء التعبير عنها بالفاء في قوله تعالى: (فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً)، وكذلك بين المضغة والعظام (فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا)، ثم تبطئ السرعة، ويأتي فارقٌ زمني وخلقي (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)[107].

4- العظام:

في هذا الطور تتحوَّل تلك المضغة إلى إلى هيكل عظمي، قال تعالى: (فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا)[108].

5- كساء العظام باللحم:

وفي هذه المرحلة تكسى العظام لحما، تهيئة للجنين للخروج إلى هذه الدنيا، قال تعالى: (فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا)[109]، فهذه الآية تُشير إلى أن العظام تتشكَّل أولاً، ثم يلتفُّ حولها اللحم والعضلات كأنه كساء لها، وهذا التصوير الدقيق يشير إلى عظمة القرآن ودقته.

6- الخلق الآخر:

وهذه المرحلة يكون فيها نفخ الروح، ويكون بعد مرحلة العَلقة نحو أربعة أشهر، وقد جاء ذلك واضحا في قوله صلى الله عليه وسلم: "إن أحدَكم يُجمَع خلقُه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقةً مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغةً مثل ذلك، ثم يُرسَل المَلَكُ فينفخُ فيه الروح، ويُؤمَر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله،

[106] سورة الحج، الآية 5.
[107] سورة المؤمنون، الآية 14.
[108] سورة المؤمنون، الآية 14.
[109] سورة المؤمنون، الآية 14.

وشقى أو سعيد"[110]، وهذه المرحلة جاءت الإشارة إليه في قوله تعالى: (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا)[111]، قال القرطبي: "اختلف الناس في الخلق الآخر، فقال ابن عباس والشعبي وأبو العالية والضحاك وابن زيد: هو نفخ الروح فيه بعد أن كان جمادا. وعن ابن عباس: خروجه إلى الدنيا. وقال قتادة عن فرقة: نبات شعره. الضحاك: خروج الأسنان ونبات الشعر. مجاهد: كمال شبابه، وروي عن ابن عمر. والصحيح أنه عام في هذا وفي غيره من النطق والإدراك وحسن المحاولة وتحصيل المعقولات إلى أن يموت"[112].

وبعد مرحلة النفخ تأتي مرحلة تكوين السمع والبصر، قال تعالى: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[113]، وقدَّم سبحانه السمع قبل البصر، وقد ثبت علميًّا أن السمع يتكوَّن قبل البصر، ثم بعد ذلك يستمرُّ نمو الإنسان في بطن أمه يومًا بعد يوم إلى أن يكتمل نموه ويصير طفلاً، (ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا)"[114].

والحكمة من خلق الإنسان في هذه الأطوار، مع أن الله عز وجل قادر على أن يقول له كن فيكون، لأن الله تعالى اختار سنة الإنشاء المتدرج، ليتعلم الخلق أن الإتقان في العمل أهم من سرعة الإنجاز، ولذلك علينا أن نأخذ هذا التدرج بعين الاعتبار في تربيه هذا الإنسان، وأن عملية التربية لا تأتي دفعة واحدة.

الثاني: أطوار الإنسان بعد فترة الولادة:

وهي المراحل التي يمر بها الإنسان بعد أن يكون جنينا من فترة ولادته حتى وفاته.

أولاً: مرحلة المهد:

وسميت هذه المرحلة بهذا الاسم لأن الصبي يكون محتاجا للمهد لينام عليه، وهو ذلك السرير الممهد له، حتى يستقر فيه، يقول ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا)[115]، أي: كيف نُحِيلنا في الجواب على صبي صغير لا يعقل الخطاب، وهو مع ذلك رضيع في مهده ولا يميز بيت مخض وزبده؟[116]. وهذه المرحلة تمتد من الولادة حتى الفطام، حيث يبدأ الصبي في الحركة والأكل.

ثانيًا: مرحلة الصبا:

وهذه المرحلة تمتد من وقت الفطام حتى ما قبل البلوغ، وأصل الصبا الميلان إلى اللهو، قال تعالى: (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا)[117].قال صاحب الوسيط في تفسيره لهذه الآية:يعني صبيًّا لم يبلُغ الحُلم، وقد أورد القرطبي قولاً لابن عباس في تفسيره لهذه الآية: "مَن قرأ القرآن قبل أن يحتَلِم فهو ممَّن أُوتِي الحكم صبيًّا"[118]، وقال الطبري: "وأعطيناه الفهم لكتاب الله في حال صباه قبل بلوغه أسنان الرجال"[119]. وإلى هذه المرحلة لا

---

[110]أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة ، ج 4، ص 111، برقم 3208، ومسلم، ح 4، ص 2036، برقم 2643.
[111]سورة المؤمنون، الآية 14.
[112]انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج 15، ص 19.
[113]سورة النحل، الآية 78.
[114]سورة غافر، الآية 67.
[115]سورة مريم، الآية 29.
[116]انظر جامع البيان للطبري، ج 15، ص 526.
[117]سورة مريم، الآية 12.
[118]انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج 13، ص 423.
[119]انظر تفسير الطبري، ج 15، ص 474.

يجري القلم على الصبي وذلك لحديث عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "رُفِع القلم عن ثلاثٍ، عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقِلَ"[120].

ثالثًا: مرحلة الفُتوَّة:

وتمتدُّ هذه المرحلة من الاحتلام حتى مرحلة الكهولة، وبعضهم يسميها مرحلة الشباب. قال في المعجم: "(الْفَتى) الشَّاب أول شبابه بَين المراهقة والرجولة وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز (قَالُوا سمعنَا فَتى يذكرهم يُقَال لَهُ إِبْرَاهِيم) والسخي وَذُو النجدة وَالْخَادِم وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز (قَالَ لفتاه آتنا غداءنا)"[121]. وفي القرآن الكريم قوله تعالى: (قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا)[122].وقد قال الله سبحانه وتعالى: (إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا)[123].

رابعًا: مرحلة الكهولة:

وهي يصبح الشاب كهلا. وفي المعجم: "الكهل: مَن جاوز الثلاثين إلى نحو الخمسين"[124].

قال تعالى: (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ)[125].

خامسًا: مرحلة الشيخوخة:

تمتدُّ هذه المرحلة ما بين الكهولة والهرم.وفي الوجيز: شاخ الإنسان شيخًا وشيخوخة: أسن، والشيخ: مَن أدرك الشيخوخة، وهي غالبًا عند الخمسين، وفوق الكهل ودون الهَرِم.

وفي هذه المرحلة يضعُفُ الإنسان عن القيام بما كان يقوم سابقا، ويستمرُّ معه الضعفُ إلى الوفاة، يقول الله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)[126].

وقال أيضًا: (حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً)[127]، أي إن هذه المرحلة تبدأ بعد الأربعين.

سادسًا: مرحلة الهرم:

وهذه المرحلة الأخيرة من مراحل تطور الإنسان، وقد ورد في الوجيز: هرم الرجل هرمًا؛ أي: بلغ أقصى الكبر وضعف، فهو هرم.

يقول الإمام الشنقيطي في أضواء البيان:قوله تعالى: (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ)[128]، يُبيِّن جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنهم بعد أن أنشأهم خلقًا آخر فأخرج الواحد منهم من بطن أمه صغيرًا، ثم

[120]أخرجه الترمذي في جامعه، ج 3، ص 84، رقم 1423.
[121]انظر المعجم الوسيط لشوقي ضيف، ص 673.
[122]سورة الكهف، الآية 62.
[123]سورة الكهف، الآية 10.
[124]انظر المعجم الوسيط لشوقي ضيف، ص 803.
[125]سورة آل عمران، الآيى 46.
[126]سورة غافر، الآية 67.
[127]سورة الأحقاف، الآية 15.
[128]سورة المؤمنون، الآيتين 15، 16.

يكون محتلمًا، ثم يكون شابًّا، ثم يكون كهلاً، ثم يكون شيخًا، ثم هرمًا، أنهم كلهم صائرون إلى الموت من عُمِّر منهم ومَن لم يُعَمَّر"[129].

والتذكير بأصل الخلقة والنشأة المقصود به التذكير بأن هذا الإنسان الذي بدأ اللهُ تعالى خلقه من طين وماء مَهين، وكرَّمه حيث جعل الملائكة العابدون الطائعون النورانيون الذين في طاعة دائمة لا يعصون الله ما أمرهم - يسجدون له سجود طاعه لله لا سجود عبادة لآدم، قال تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)[130]. وقال تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)[131]، هذا يجعل الإنسان لا ينسى أصل خلقته، ويتواضع لربه، فلا يتجبر ولا يتكبر، ويفرد خالقه الذي خلقه بالعبادة، وأن مهما أوتي من قوة وبسطة فيا الجسم، فإنه أضعف مما يتصور. فإن مبدأه طفل رضيع لا يقدر على الحركة، ومنتهاه شيخا هرما لا يقوى على الحركة إلا قليلا. قال تعالى: (وخلق الإنسان ضعيفا)[132].

المقصدالثالث: تذكير نوح عليه قومه بمردهم إلى خالقهم

وهذا المقصد دأب عليه الأنبياء والمرسلون كلهم، قال تعالى: "(إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ)[133]، وهو لا يعرف معناها غالبًا، وتفسيرُها: لقدِ اصطفَيناهُمْأي: الأنبياء وجعَلناهُمْ خالِصينَ لنا، بسبَبِ خَصلةٍ جَليلةٍ فيهم، هي جَعلُهمُ الدَّارَ الآخِرَةَ همَّهمُ الأوَّل، وتذكُّرُهمْ لها دائمًا.

وقد ذكر نوح عليه السلام بهذا المبدأ العظيم وذلك واضح في قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا)[134]. قال ابن كثير: "أيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعِيدُكُمْ كَمَا بَدَأَكُمْ أوَّلَ مَرَّةٍ"[135].

والتذكير بالمعاد أسلوب دأب عليه أنبياء الله ورسله، حتى يرجع أقوامهم عن عنادهم ويعلموا أن عبادة الله وحده هي التي ستنجيهم من عذاب من عصاه يوم القيامة، وأن الإنسان مهما طال بقاؤه في الدنيا آتيه يوم لا مفر منه تفيض روحه إلى باريها ثم يلقى جزاءه يوم الحساب.

وقد جاءت الشرائع السماوية بتأكيد أن الغاية من الخلقة هي الحياة الأخروية المستمرّة التي لا تتحقق إلاّ بالتجرّد عن المادة وآثارها ، قال سبحانه : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ)[136].

وعندما هبط آدم عليه السّلام إلى الأرض، خاطب ربنا سبحانه خلقه، بقوله سبحانه : (قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ)[137]. وفي قوله : (وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ) إشارة إلى أنّ الإنسان يعيش في هذه الدنيا إلىٰ أجل محدود، ثم يبعث إلى يوم القيامة.

وجاءت الإشارة إلى هذا المقصد العظيم في خطاب إبراهيم عليه السلام لقومه، حيث قال سبحانه: (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ)[138]. وقال سبحانه : (وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ)[139]،وقال سبحانه: (وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)[140].

---

[129] انظر أضواء البيان للشنقيطي، ج 5، ص 855.
[130] سورة البقرة، الآية 34.
[131] سورة الإسراء، الآية 70.
[132] سورة النساء، الآية 83.
[133] سورة ص، الآية 46.
[134] سورة نوح، الآيتين 17، 18.
[135] انظر تفسير ابن كثير، ج 8، ص 234.
[136] سورة المؤمنون، الآية 115.
[137] سورة الأعراف، الآية 24.
[138] سورة إبراهيم، الآية 41.

والتذكير بالمعاد ينطوي على حكم عظيمة وجليلة من أهمها:

1- أن الإنسان لا ينبغي عليه أن يتعلق بهذه الدنيا الزائلة، بل هي مزرعة للآخرة، سرعان ما يتركها ليبعث إلى خالقه فيجازيه على ما قدم في دنياه.
2- أن البعث والنشور من أعظم ما يجعل العبد يسخر حياته لعبادة ربه، وأن يجعل مرضاته سبحانه هي غايته، لأنها هي التي تنجيه يوم الحساب.
3- مبدأ البعث والنشور يجعل العبد دائم الرجوع إلى ربه، فمهما قصر في جنب ربه أو أذنب، فسرعان ما يرجع ويتوب إلى ربه، حتى يستدرك ما فاته ويقدم الأعمال الصالحة التي تكفر السيئات، ويفرح بها حين يقوم بين يدي ربه يوم القيامة.

الخاتمة

لقد توصل الباحث إلى بعض النتائج من هذه الورقة:

1- أن المقاصد الشرعية من الأمور التي اهتم بها العلماء قديما وحديثا
2- أن القرآن الكريم هو مصدر المقاصد الشرعية وكذا السنة النبوية، لذلك ينبغي على الباحثين العكوف على استخراجها من هذا الكتاب العظيم.
3- قصة نوح عليه السلام من أعظم القصص القرآني الذي ذكر في القرآن، فقد دعا قومه ما ألف سنة إلا خمسين عاما، وقد استخدم معهم كل الوسائل التي أمكنه استخدامها حتى يرجعهم إلى عبادة ربهم وحده لا شريك له.
4- أن سورة نوح اشتملت على جملة من المقاصد الشرعية العامة التي ينبني عليها كثير من أحكام الدين وتفاصيله، والتي تلخص لنا دعوة نوح عليه السلام مع قومه والمراحل التي مرت بها، والأساليب المختلفة التي استخدمها عليه السلام لدعوتهم، حتى جاءه الوحي بصنع السفينة والنجاة بمن آمن معه من المؤمنين.
5- سورة نوح عليه السلام اشتملت على مقاصد عامة ثلاثة:
المقصد الأول: ترسيخ عبادة الله وحده في نفوس المدعوين وأن ذلك هو الغاية من خلقهم.
والمقصد الثاني: تذكير المدعوين بآلاء الله وآياته في الأنفس وفي خلق السموات والأرض وأن ذلك يدعوهم إلى الرجوع إلى ربهم.
المقصد الثالث: تذكيرهم بالمعاد وأن مردهم سيكون إلى ربهم الذي أمرهم بطاعته حيث الجزاء والثواب.

[139] سورة الشعراء، الآية 87.
[140] سورة العنكبوت، الآية 17.

المصادر والمراجع

(1) ابن حجر، أحمد بن علي، 1379 هـ، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تصحيح الخطيب، دار المعرفة، بيروت.
(2) ابن عاشور، الطاهر، 2001م، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق الطاهر ميساوي، الطبعة الثانية، دار النفائس، الأردن.
(3) ابن كثير، إسماعيل بن عمر، 1998م، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي سلامة، الطبعة الثانية، دار طيبة، المدنية المنورة.
(4) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، الطبعة الأولى، مكتبة العلوم والحكم، المدينة.
(5) أحمد، أبو عبد الله ابن حنبل، 2001 م، مسند أحمد، تحقيق شعيب الأرناؤوط، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت.
(6) البخاري، محمد بن إسماعيل، 1422 هـ، صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير، الطبعة الأولى، دار طوق النجاة.
(7) الترمذي، محمد بن عيسى، 1998 م، الجامع الكبير، تحقيق بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
(8) الجوهري، إسماعيل بن حماد، 1979م، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت.
(9) الحاكم، أبو عبد الله، 1990، المستدرك على الصحيحين، تحقيق عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت.
(10) الزحيلي، وهبة، 1986م، أصول الفقه الإسلامي، الطبعة الأولى، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.
(11) الزمخشري، محمود بن عمر، 1998 م، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت.
(12) الشاطبي، إبراهيم بن موسى، 1997م، الموافقات، تحقيق مشهور حسن سلمان، الطبعة الأولى، دار ابن عفان، الخبر.
(13) الشنقيطي، محمد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تحقيق بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد.
(14) شوقي ضيف، ضيف، 2004 المعجم الوسيط، الطبعة الرابعة، مكتبة الشروق الدولية.
(15) الطبري، أبو جعفر، 2000م، جامع البيان في تأويل القرآن تحقيق محمد شاكر، مؤسسة الرسالة.
(16) الطبري، أبو جعفرن 2001، جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى، دار هجر، الجيزة.
(17) الفاسي، علال، 1993 م، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، الطبعة الخامسة، دار الغرب الإسلامي.
(18) القرطبي، محمد بن أحمد، 2006 م، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عبد الله التركي، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت.
(19) القطان، مناع بن خليل، 2000م، مباحث في علوم القرآن، الطبعة السابعة، دار مكتبة وهبة، القاهرة.
(20) مسلم، أبو الحسين ابن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت.
(21) الوعلان، عبد المجيد، 1433هـ، الآيات الكونية دراسة عقدية، رسالة ماجستير.